معنى الكلمة بين الاتجاه التجريدي والاتجاه الوظيفي

يحيى أحمد*

* حصل على الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٧٩ .
* مدرس بقسم اللغة العربية ـــ جامعة الكويت .

الملخص

تتناول هذه الدراسة موضوع معنى الكلمة وذلك من خلال تقديم عرض تحليلي لمفهوم الرمز اللغوي عند اللغوي السويسري دو سوسير ، مع ربط هذا المفهوم بالاطار العام للتفكير اللغوى عند هذا اللغوى . وبعد العرض النقدي التحليلي لمفهوم الرمز اللغوى عند دو سوسير ، والذي يمثل الاتجاه التجريدي في فهم المعنى ، سيتضح لنا أن هذا المفهوم يعاني من نقص واضح في شموليته لمعنى الكلمة المفردة . وكمحاولة لمعالجة هذا النقص ، يقترح الكاتب تبني الاتجاه الوظيفي في التحليل اللغوى لما له من مميزات خاصة تمنحه القدرة على تفسير الوقائع اللغوية بما يتلاءم وطبيعة اللغة الانسانية ويتضح ذلك من خلال فكرة « التساوق » التي تهدف الى شرح المعنى حسب كيفية ائتلاف كلمة مع كلمة أخرى في السياق وتطرح جانبا التعريف التجريدي المسبق للكلمة . وبهذا ، تقدم المقالة فكرة « التساوق » التي كان اللغوى الانجليزي هاليدى قد طرحها في منتصف الستينات ، مع توضيح خصائصها ومميزاتها وذلك من خلال أمثلة وأدلة من اللغة العربية يأتي بها الكاتب لتأصيل الفكرة .

مقدمـــة

ان دراسة المعنى أصعب بكثير من دراسة العناصر الصوتية والصرفية والنحوية في اللغة ، وذلك لأننا نستطيع التحدث عن العناصر الصوتية والنحوية من خلال تحليل وحدات لغوية لها تحقق مادي . فاذا تناولنا جملة مثل « ضرب زيد عمرا » فسنجد أنها تتكون من مجموعة من الأصوات بامكاننا وصفها وتصنيفها ضمن النظام الصوتي في اللغة العربية . وبامكاننا أيضا أن نستخرج الوحدات الصرفية في هذه الجملة وندرجها ضمن الاصناف التي تنتمي اليها . وبامكاننا أخيرا أن نتكلم عن نسج هذه الجملة ، أي طريقة ترتيب الكلمات فيها وعلاقة كل كلمة بما يجاورها تبعا لنظام الإعراب وتركيب الجملة في اللغة العربية . أما المعنى فانه يتعلق بالمفاهيم concepts أو الصورة العقلية للاشياء . أي أن طبيعة المعنى عبارة عن شيء محير نوعا ما وواسع المعالم ، وهي لا تخضع لنفس التجزيء المادي الذي تخضع له العناصر الصوتية والنحوية في اللغة . وبسبب هذه الصعوبة النسبية فقد أولت المدارس اللغوية المختلفة اهتماما يختلف من حيث العمق أو التركيز لموضوع المعنى .

وفي حديثنا عن ماهية المعنى ينبغي أن نفرق بين معنى الكلمة المفردة ومعنى الجملة . فالجانب الأول يتناول المعنى على مستوى الكلمة ، بينما يتناول الجانب الثاني المعنى على مستوى الجملة . وأساس تقسيمنا هذا ينبع من حقيقة واضحة وهي أن كل جملة مفيدة تتكون ، بداهة ، من كلمات ذات دلالات واضحة . ولكي تكون للكلمة دلالة واضحة فيجب أن تقترن بمعنى له صفة العموم ، أي أن تكون الكلمة بمثابة رمز مشترك مستعمل من قبل جميع أفراد البيئة اللغوية . فنحن نعرف معنى كلمة أسد أو جبل أو مطر وغيرها من كلمات وذلك لأن مثل هذه الكلمات مرتبطة بمعان معروفة لدى الجميع . أما كلمة (خَذَ عُرب) و (عُنْصُل) فهي غير معروفة الدلالة على مستوى الاستعمال العام . ولو استعمل شخص كلمة (خَذَ عرْب) لتدل على الرجل الكبير السن ، المتهالك على الملذات ، لظل هذا الاستعمال شخصيا ، وربما لم يكن مقبولا ، اذ أن « المعنى هو حصيلة استخدام الكلمة في البيئة اللغوية الواحدة » (حجازي ، ١٩٧٣ : ١٥) .

وحينما تشيع الكلمة فقط لدى فئة معينة في المجتمع ، أو لدى قطاع محدد كالحرفيين والطلبة والنشالين الخ .... فان ذلك يعني أن مجال الدلالة قد تحدد بمستوى معين من الاستعمال . وهنا نكون قد دخلنا ضمن ما يسمى « باللغة الخاصة » ، كاستعمال كلمة (الخنزيرة) و (الفلس) عند الميكانيكيين ، و (طير) و (بو عباس) و (دادأس ـــ مقلوب أستاذ مع اضافة بعض الأصوات للتمويه) عند بعض الطلبة ، و(الرمانة) و(البكارة) و (الحواجب) عند النجارين .

أما حينما تشيع الكلمة في فترة تاريخية من عمر اللغة ، ثم يهجرها مستعملو اللغة (لاسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا) فان المعنى عندئذ تصبح له أهمية تاريخية فقط . وذلك من قبيل : المطرمذ بمعنى الكذاب والمشيح بمعنى الجاد والطرم والسنوت والحميت وهي من أسماء العسل (أنظر المزهر ١ : ٣٠٩) . اذن فمعنى الكلمة قد يتخذ صورة من احدى الصور الثلاث التالية :

ـــ معنى عام رائج الاستعمال (يستعمل ويفهم من قبل الغالبية العظمى من أفراد البيئة اللغوية) .

ـــ معنى خاص (ينحصر فهمه واستعماله لدى مجموعة محددة من مستعملي اللغة) .

ـــ معنى ممات (كلمة توقف استعمالها في حقبة معينة من تاريخ اللغة) .

وسيكون حديثنا هنا منصبا على المعنى الذي يندرج تحت النوع الأول .

ان النظرة العامة الى المقصود بمعنى الكلمة تحصر الأمر في فكرة جوهرية وهي أن الكلمة تستعمل بالدرجة الأولى « اشارة » الى شيء ما : كائن ، جماد ، حدث ، ... الخ وقد اختلفت وجهات نظر اللغويين والمدارس اللغوية حول طبيعة هذه العلاقة . فالاتجاه البنيوي كما تمثله كتابات اللغوي الأمريكي بلومفيلد Bloomfield والمبني على أسس المذهب السلوكي ينظر الى هذه العلاقة على أساس أنها حصيلة عنصري الاثارة والاستجابة في الحدث اللغوي . ويتضح ذلك من خلال الحكاية المشهورة التي أوردها بلومفيلد عن فتاة تدعى « جل » وفتى يدعى « جاك » ، حيث تشعر الفتاة بالجوع بينما هما سائران في طرقة . وفجأة ترى الفتاة تفاحة على شجرة وبدلا من أن يصدر منها رد فعل مباشر بأن تتسلق الشجرة وتأخذ التفاحة ، تفتح فمها فتنطق ببضع عبارات تطلب خلالها من « جاك » أن يجلب لها التفاح (راجع الحكاية مع التعليقات المفيدة حولها في (Lyons : 1977 : 126 ff) وانظر كذلك : (Palmer 1976 : 52 ff) . ومن الواضح أن هذا الاسلوب في شرح المعنى لا يعطينا نتائج ذات مغزى ، وذلك لعدم امكانية اخضاع جميع المفردات لعنصري المثير والاستجابة (راجع أيضا أنور : ١٩٧٩) .

والاتجاه التجريدي يربط بين الاشياء ومسمياتها عن طريق مفاهيم أو أفكار مجردة توجد في الذهن . ويمثل هذا الاتجاه دوسوسير بمفهومه عن الرمز اللغوي وأيضا أوغدن ورتشاردز Ogden and Richards اللذان وضحا العلاقة من خلال ما اشتهر في الدراسات الدلالية بـ « مثلث الفكر the semiotic triangle » ولسنا في حاجة الى أن نتعمق في عرض الرأي الأخير ، اذ يوجد في اللغة العربية شيء مكتوب عنه (أولمان ١٩٦٢ : ٥٨ فما بعد) وأيضا (عمر ١٩٨٢ : ٥٤) . ويكفي لتوضيح الفكرة ضمن المقال الحالي نبين أن أساس هذا المثلث أن معنى الكلمة يقوم على ثلاثة مفاهيم كما هو موضح بالمثلث التالي :

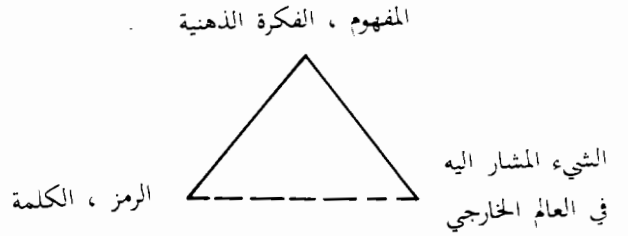

الرمز هنا عبارة عن شيء لغوى ، أي هو الكلمة التي نكتبها أو ننطق بها . ومرجع الرمز هو الشيء المشار اليه في عالم التجربة . أما المفهوم فهو صورة هذا الشيء في الذهن ومما يشير اليه الشكل السابق أنه ليس ثمة ارتباط مباشر بين الرمز والشيء المشار اليه ، ويتضح هذا في الشكل من خلال الخط غير المتصل . والعنصران يرتبطان مع بعضهما من خلال المفهوم (أنظر لنقد هذه الفكرة (Palmer 1976 : 26 ff) ويلاحظ أن رأي أوغدن وريتشاردز (الذي نشر لأول مرة في ١٩٢٣) يقترب من رأي دوسوسير إذ أن الرأيين يربطان بين الكلمات والأشياء بشكل غير مباشر ، أي عن طريق الصورة الذهنية المجردة . ويهمنا الآن أن نتوقف عند دوسوسير لندرس رأيه في معنى الكلمة بشيء من التفصيل .

دوسوسير والرمز اللغوي

المراجع اللغوية الغربية تلقب فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ ــ ١٩١٣) بـ (أبو علم اللغة الحديث) father of modern linguistics[1] وذلك لأنه طرح مجموعة أفكار ساهمت في ارساء قواعد علم اللغة الحديث . من هذه الأفكار ــ مثلا ــ تفريقه بين اللغة والكلام . اذ تمثل اللغة في نظره مجموعة القواعد والمعلومات المعجمية والنحوية والصوتية المجردة في ذهن المتكلم . أما الكلام فهو التمثيل المادي لهذه المعرفة . كذلك فرق دوسوسير بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية للغة ، وتكلم عن المضمون والشكل في اللغة على المستوى النحوي والصوتي . وليس لدوسوسير غير كتاب واحد ، ألا وهو كتابه الذائع الصيت (محاضرات في علم اللغة العام) Course in General Linguistics وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يكتب بقلمه[2] ، الا أنه ترك أثرا ضخما في الدراسات اللغوية الحديثة .

وقد تناول دوسوسير موضوع معنى الكلمة ، أو المعنى الاشاري referentail meaning (أي استخدام الكلمة اشارة الى معنى ما) وذلك من خلال مفهوم خاص طرحه عن الرمز اللغوي linguistic Sign يرى دوسوسير (ص ٦٦) أن الرمز اللغوي لا يرتبط بمجرد ثنائية هي الشيء واسمه ، وانما هو في الواقع عبارة عن « مفهوم » concept « وصورة صوتية » sound image من جهة ، ومن جهة أخرى عبارة عن صورة ذات واجهتين : « رمز » signifier و « شيء » مقصود بالرمز signified ويمكن توضيح هذا التعريف للرمز اللغوي كما يلي :

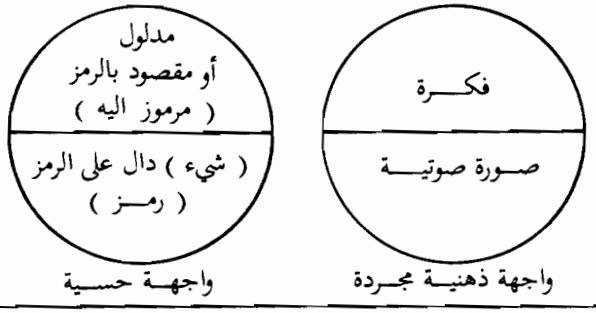

أي أن الرمز عند دوسوسير عبارة عن شيئين كل شيء ذو وجهين ، مما يؤدي بنا الى القول في النهاية ان الرمز اللغوي هو حصيلة أربع علاقات متداخلة ، اثنتين منها (يمثلهما في الشكل الدائرة الأولى) على جانب كبير من التجريد .

والملاحظ هنا أن رأي دوسوسير في الرمز اللغوي يناظر نمط رأيه حول اللغة والكلام فهو يؤمن بوجود عناصر مجردة في ذهن مستعمل اللغة . فاللغة عنده ـــ كما مر بنا ـــ عبارة عن حصيلة من المعلومات النحوية والصرفية المجردة الموجودة في عقل مستعمل اللغة ، أي أنها شيء عقلي اجتماعي . أما الكلام فهو عبارة عن الجانب المادي والفردي للغة .

ونحن نرى أن سوسير يتبع نفس النمط من التفكير حينما طرح رأيه حول الرمز اللغوي ويتضح ذلك من تقسيمه لمفهوم الرمز اللغوي الى واجهتين احداهما ذهنية مجردة والأخرى حسية ، أو لها تحقق في العالم المادي . ففيما يختص « بالصورة الصوتية » فما قصده دوسوسير هو الأثر الصوتي الذي نسمعه في خيالنا ، وليس الكلمة المنطوقة بالفعل ، اذ أن صورة الصوت بشكلها المنطوق يمكن كتابتها ، أما الأصوات نفسها فلا يمكن كتابتها . وبعبارة أخرى يمكننا القول بأن الصورة الصوتية هي الجانب المجرد من الصوت ، وليس الجانب المادي أو الفيزيائي . ويوضح الفكرة ما ذكره دوسوسير (ص ٦٦) من أنه بامكان المرء أن ينشد لنفسه أبياتاً من قصيدة شعرية بدون أن يحرك شفتيه أو لسانه .

أما عما سماه دوسوسير بالمفهوم concept فلم يتوسع في الواقع في بيان مدلوله ولكن اكتفى بالحديث عنه في عبارات مبهمة مفادها أن المفهوم على درجة عالية من التجريد ، وأنه عبارة عن الانطباع العقلي الناشيء من نطقنا لمجموعة من الأصوات .

وحينما نأتي للحديث عن « الرمز » « ومدلوله » فاننا نكون قد اقتربنا من مجال الواقع اللغوي لانهما يمثلان الجانب المادي من الكلمة ومعناها ، على حين أن « المفهوم » وما له من « صورة صوتية » يعتبران على درجة عالية من التجريد كما مر بنا . ولو أخذنا مثالا توضيحيا ككلمة (شجرة) فان الواجهة الأولى لهذا الرمز اللغوي تتمثل في الفكرة العامة المجردة التي نحملها في أذهاننا عن مفهوم الشجرة أو شكلها العام . الى جانب ذلك ، فان هذه الفكرة أو هذا المفهوم يرتبط بصورة صوتية هي عبارة عن الشكل النطقي الموجود في الذهن لهذا المفهوم . أما حينما يرى الواحد منا شجرة في الواقع المادي ، وينطق بالفعل بهذه الكلمة ، أو ربما يكتبها كتابة ، فانه يكون قد استعمل كلمة (شجرة) رمزا (أي إشارة الى) تلك الفصيلة من النباتات المعروفة لنا . ومن الواضح خلال هذا المثال ، أن أية واجهة بمفردها لا تشكل الرمز اللغوي ، بل ان ما يسمى بالرمز اللغوي هو عبارة عن اتحاد تلك الواجهتين ، كما هو الحال بالنسبة للعملة المعدنية . وكما قال دوسوسير نفسه (ص ١١٣) في معرض حديثه عن العلاقة المتلازمة ما بين اللغة والفكر ، الامر كالورقة : لا تستطيع أن تقص وجهاً واحداً منها بدون قص الوجه الآخر .

طبيعة الرمز اللغوي

للرمز اللغوي عند دوسوسير صفة جوهرية وهى صفة الاعتباطية ، والمقصود بهذا أنه ليست هناك علاقة منطقية بين الرمز ومدلوله . فاتفاق أفراد البيئة اللغوية العربية على تسمية القط بالأصوات (ق / ط) بهذا التتابع ، هو مجرد صدفة وليس وليد اعتبارات منطقية متأصلة في ذات الأصوات . أى أنه كان من الممكن أن يسمى « القط » في اللغة العربية (كريز) أو (ثعالة) أو (نرمز) أو أية تسمية أخرى هى عبارة عن تتابع مجموعة من الأصوات ولكن في نسق مقبول ، اذ أن الأصوات بحد ذاتها ليست لها دلالة ما . أي أن الأصوات لا تقترن بقيم ذاتية متأصلة بها . فالصوت (ق) لا يدل على شيء معين ، وليس له ايحاء يتعرف عليه المرء اثر نطقه أو قراءته لهذا الصوت . فمثلا ليس هناك أي رابط يربط بين الكلمات (قط) و (قلب) و (قمر) و (قشعم) لاحتوائها على نفس الصوت في بداياتها .

ومن مظاهر اعتباطية الرمز اللغوي عدم وجود « أية علاقة طبيعية بين الرمز اللغوي ومدلوله في الواقع الخارجي ، والعلاقة الوحيدة القائمة بين الرمز الصوتي اللغوي وما يدل عليه هي علاقة الرمز ، فالكلمة قد ترمز الى شيء مادي أو الى شيء معنوي . وعلى هذا فلا علاقة طبيعية تربط بين الأصوات المكونة لكلمة منضدة في العربية أو كلمة Tisch في الألمانية ، وبين المنضدة كواقع مادي . والمنضدة في اللغة العربية كلمة مؤنثة ، لا لأن هناك تأنيثا في خشب المنضدة ، ولكن لأنها تنتهي بتاء ، والتاء في العربية علامة تأنيث ، فالتأنيث هنا ليس للمنضدة كواقع مادي ملموس ، بل لكلمة منضدة في اللغة العربية . ويقابل هذه الكلمة بالالمانية كلمة der Tisch وهذه الكلمة الألمانية تصنف من المذكر . ولذا فتصنيف الكلمات في اللغة الواحدة يكون نظاما لغويا مستقلا عن مدلولات هذه الاشياء » . (حجازي ، ١٩٧٣ : ١٤) .

والواقع أنه لو كانت هناك علاقة طبيعية بين الكلمات ومدلولاتها لتكبلت لغتنا بقيود ثقيلة تحول دون استخدامنا لها استخداما خلاقا في المواقف اللغوية المختلفة . ولو أن الرموز اللغوية كانت ترتبط بقيم ذاتية لها مدلول ثابت في العالم الخارجي لما اختلفت اللغات ولسهلت الترجمة ، بل لما نشأت اللهجات ضمن اللغة الواحدة .

ولكن ينبغي أن نقرر هنا أن هناك مجموعة من الكلمات في اللغة العربية بامكاننا أن نستشف علاقة مباشرة بين أصواتها ومعانيها وذلك مثل : « أز » و « أزيز » و « دندن » و « نشيش » و « كوكو » . كما يمكن في بعض الأحوال البحث عن معنى عام مشترك في الكلمات المشتقة من الجذر الواحد[٣] . ولكن مثل هذه الكلمات محدودة في اللغة العربية بحيث أنها لا تكفي كأمثلة مضادة للفكرة العامة التي ذكرناها قبل قليل ، بل العكس : اننا نستطيع أن نعتبرها الاستثناء الذي يثبت القاعدة .

ومن المهم في هذا السياق تأكيد نقطة كان دو سوسير حريصاً على توضيحها (ص ٦٩) وهي أن صفة الاعتباطية في الرمز اللغوي لا تعني أن أمر اختيار الرموز متروك بصفة كلية للافراد . ان المصطلح يشير الى طبيعة العلاقة بين الجانب المادي (الصوتي) والجانب المعنوي في الكلمة . والواقع أن الرمز اللغوي حينما يستعمل في المجتمع ويشيع في الاستعمال فانها تصبح مفروضة على أفراد المجتمع . ويتجلى ذلك في الاستعمال العام لذلك الرمز اللغوي من قبل أفراد البيئة اللغوية ، وعندئذ لا يخضع تغيير الرمز للذوق الفردي وفي ذلك يقول دو سوسير : « القانون الذي يقبله أفراد مجتمع ما هو عبارة عن أمر يحتمله أفراد هذا المجتمع وليس عبارة عن قاعدة يسلم بها الجميع عن طوع ارادتهم .[٤] وهذا هو السبب الذي يجعلنا نطرب للغة الشاعر المبدع ، اذ أننا نجد « الكلمات العادية » وقد اتخذت عنده ظلالا جديدة من المعاني .

ولكن وجهة نظر دو سوسير في اعتباطية الرمز اللغوي ـــ كأية قضية فكرية أخرى ـــ لم تمر بدون اعتراض . فقد ذهب اللغوي الفرنسي اميل بنفنيست Benveniste في مقالة نقدية له عن طبيعة الرمز اللغوي[٥] إلى أن العلاقة بين الرمز ومدلوله لا يمكن أن تكون اعتباطية ، فالرمز اللغوي الذي يطلق على فكرة ما يرتبط بهذه الفكرة بحيث لا يمكن استعمال أي رمز آخر للتعبير عن نفس الفكرة . فمثلا نحن نسمي « الكلب » في اللغة العربية بهذا الاسم ، ولا يمكن لكلمة أخرى مثل (العنصل) أن تعبر عن نفس المفهوم . وثمة دليل آخر على أن هذه العلاقة ما بين الرمز ومدلوله علاقة ضرورية وليست اعتباطية وهو أن الانسان لا يحتفظ في عقله بكلمات فارغة لا معنى لها ، nonsensical words أي الكلمات التي هي مجرد تتابعات صوتية ، مثل : شاكح وطرعيل أو أية كلمة لا معنى لها يستطيع المرء تأليفها في أية لحظة . ذلك لأن الكلمة الجوفاء الفارغة من أي معنى لا ترتبط مع الواقع اللغوي بأي رابط ، والعقل الانساني لا يحتفظ بالمسميات الفارغة .

هذه خلاصة رأي اميل بنفنيست . والواقع أن فيه التوضيح والتأكيد لرأي دو سوسير أكثر مما فيه من الاعتراض العملي . فالعلاقة بين الرمز ومدلوله علاقة اعتباطية بحكم عدم وجود أي رابط ذاتي بين الشيئين . أما حينما نطلق الاسم على مسماه فان علاقة مكتسبة تنشأ بين الدال والمدلول ، أي أن هذا الاسم يرتبط بعد ذلك بقيمة بحكم كونه جزءا في النظام اللغوي ، ويصبح مفروضا على الجماعة اللغوية وهنا يجدر بنا أن نلم بمفهوم القيمة value وذلك لما له من صلة بموضوعنا هذا .

ان الجزيئات المفردة من حقائق اللغة لا تشكل نظاما لغويا system فالصوت / س / أو الصوت /ع / أو حرف الجر (في) أو أداة التعريف (ال) الخ .... لا يعني شيئا حينما نستعمل كل واحد منها بمفرده . وانما تتحقق لهذه الجزيئات معانيها حينما تستعمل في مقابل نظائر أخرى ضمن النظام اللغوي الواحد . ومن ثم فان الصوت /ش/ يعد صوتا واحدا بالنسبة للعربي سواء أكان من منطقة وسط الفم أم من منطقة اللثة العليا . أما بالنسبة للألماني فالتحديد الدقيق لمكان نطق هذا الصوت مهم جدا وذلك لاختلاف العلاقات الصوتية في النظام الصوتي في اللغتين (قارن الشين العربية

بالصوتين / š / و / C / في الألمانية) . وكذلك نجد أن كلمة « محايد » neutral لا تعني شيئا في النظام النحوي للغة العربية ، على حين أن هذه الكلمة مهمة في اللغة الألمانية مثلا لارتباطها بقيمة في تقسيم المفردات الى فئاتها الثلاث من حيث الجنس : مذكر ، مؤنث ، محايد . وحتى كلمة « الجمع » فإنها تعنى بالنسبة للغة العربية شيئا مختلفا عما تعنيه بالنسبة للغة مثل الفرنسية ، وذلك لأن هذه الكلمة تتناظر في اللغة العربية مع مصطلحين آخرين هما « المفرد » و « المثنى » ، فإذن طبيعة العلاقة مختلفة .

وبامكاننا توضيح الفكرة بالتشبيه الذى ذكره دو سوسير نفسه (ص ١٠٨) . يتكلم دو سوسير عن القطار الذى يغادر جنيف الى باريس يومياً في تمام الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحاً . وعلى الرغم من أن عربات هذا القطار تتبدل يومياً ، وربما تغير سائق القطار ومن بداخله من موظفين ، الا أن مستعملى القطار يدركون أنه هو نفس القطار وليس قطار العاشرة أو التاسعة والربع مثلا ، وذلك بحكم موقعه الثابت ضمن نظام جدول القطارات .

ولنأخذ مثلا توضيحياً آخر لسوسير (ص ١١٠) . اذا ضاعت قطعة من القطع المكونة للعبة الشطرنج ، لنفترض أن هذه القطعة هي الجندي ، فاننا نستطيع استبدال هذه القطعة بأي شيء : ممحاة ، ملعقة صغيرة ، عقب سيجارة ... وسنجد أن أي شيء نختاره كبديل سيؤدي نفس الوظيفة التي كانت تؤديها القطعة الاصلية ، طالما أن هذا البديل يحمل نفس القيمة المعطاة للقطعة الاصلية في نظام لعبة الشطرنج .

وهكذا الامر بالنسبة للغة . فمحتويات اللغة لا تحمل قيمة بحد ذاتها ، وانما تتحدد قيمة كل جانب بما تؤديه من وظيفة في ظل وجود جوانب أخرى تنتمي الى نفس النوع في النظام اللغوي . ويلخص دو سوسير هذا الرأي في تعريفه للغة حيث يقول : « اللغة نظام من العلاقات المعتمدة على بعضها interdependent terms بحيث أن قيمة كل علاقة في هذا النظام تنشأ فقط لأن هناك علاقات أخرى موجودة معها في نفس الوقت[٦] » .

وموضوع العلاقة بين اللغة والفكر تؤكد في نظر دو سوسير (ص ١١١) على أن اللغة تقوم على أساس نظام من القيم system of values . فالفكر لوحده شيء غير مميز أو محدود المعالم ، وانما يبرز الفكر عن طريق اللغة . وفي المقابل ليست هناك قوالب لفظية جاهزة منفصلة عن الفكر . فاذا كان هذان العنصران (عنصر اللفظ وعنصر الفكرة) غير موجودين بشكل منفصل ، لأن الوجود المنفصل لعناصر اللغة لا يرتبط بأية قيمة ، فمعنى ذلك أن الربط ما بين العنصرين يتم بشكل اعتباطي في وقت صوغ الكلمة أو استعمالها لأول مرة .

تقويم مفهوم دو سوسير عن الرمز اللغوي

لا أحسب أن الأفكار الفلسفية يمكن تقويمها بتصنيفها ضمن دائرة الخطأ أو دائرة الصواب

تصنيفا مباشراً أو حاسماً . فجدوى أي رأي إنما يتضح بمقدار نجاح هذا الرأي في تفسير أو تعديل أو تطوير الحقائق المتعلقة بذلك الحقل من المعرفة الذي جاء ذلك الرأي ليقول شيئا فيه . وفيما يختص بموضوع المعنى في الدراسة اللغوية ، فان واقع الاستعمال اللغوي فيه ما يوضح جدوى مفهوم دو سوسير بمعناه العام . ليحاول أحدنا أن يستحضر في ذهنه صورة شخص تحادث معه في أمر من الأمور ، وليتذكر اللحظة التي توقف هو فيها أو توقف محدثه في أثناء الحديث للبحث عن كلمة مناسبة يعبر بها عن مفهوم واضح في ذهنه ومعروف لديه تمام المعرفة . فالذي يحدث عندئذ هو أن تكون الفكرة موجودة في الذهن أما الصورة الصوتية المعبرة عن هذه الفكرة فتكون غير موجودة في الذهن ، أو ربما تكون قد تلاشت بشكل وقتي لأسباب مختلفة أهمها جو المحيط الخارجي (كوجود أمور تسبب الارتباك أو تشتت التركيز) والنسيان والعوامل النفسية الطارئة كالخوف الشديد والفرح الغامر وغيرها من أسباب . وقد يحدث العكس ، فنجد من تكون الصورة الصوتية حاضرة في ذهنه ولكن الفكرة التي تطابقها غير واضحة في الذهن أو هي صحيحة أو ربما لا تكون موجودة في الذهن بتاتا . ومثال هذا الوضع الشخصي الذي يستعمل كلمة (كركدن) لكي يعني به نوعا من أنواع الطيور . أو يستعمل ــ مثلا ــ كلمة (الهامور) وذلك وهو يشير الى سمك (النقرور) ، ظنا منه أن هذا هو ما يسمى بسمك الهامور وذلك للشبه الشديد بين هذين الصنفين من الاسماك . وقد يحدث أن يلقى شخص على مسامعك كلمة يكون قد التقطها من مصدرها ، مثل كلمة (جثجاث) و (ارهاص) ــ على سبيل التمثيل لا الحصر ــ دون أن يعرف بالضبط أي مدلول لهما . مثل هذه المواقف تقدم سندا لوجهة النظر التي طرحها دوسوسير ، وتدخلها ضمن دائرة الأمور اللغوية المعقدة التي يقوم بها الانسان .

ولكن رأي دوسوسير يواجه بعض الصعوبات حينما يصل الأمر الى تحديد معاني الكلمات التي ليس لها « مفهوم » أو حتى « أشكال » في العالم المادي تساعدنا على تحديد معانيها وذلك مثلما فعلنا بالنسبة للأمور الحسية ، كتحديد معنى : شجرة ، كلب ، مطر ، صيف ، نهر الخ ... وأقصد بذلك على وجه التحديد : كيف يمكننا أن نحدد معاني الكلمات المجردة من قبيل : الحرية ، الديمقراطية ، العقاب ، البؤس ، العذاب وكثير غيرها ؟ ان المشكلة هنا تكمن في أن الواجهة الأولى ــ هذا على فرض وجودها في الذهن ــ ستعاني من خلل في جانب من جانبيها ، وهو المتمثل في عنصر المفهوم . فاذا سلمنا بأنه من الممكن أن يرتسم في ذهني « مفهوم » عام عن « الشجرة » بحيث أنه يصبح بامكاني التعرف على ذلك النبات اذا رأيته بالعين المجردة على الطبيعة ، أو شاهدته مرسوما على لوحة أو صورة فوتوغرافية أو غير ذلك . فما هو ــ يا ترى ــ المفهوم العام ، ولا أقول الصورة العامة ، الذي من الممكن أن يرتسم في ذهني عن « الديمقراطية » مثلا ؟ وهل سيكون هذا المفهوم موحدا لدى جميع أفراد البيئة اللغوية ، كما هو الحال بالنسبة للصور الذهنية التي لها شكل في العالم الخارجي كالشجرة والتفاحة والقلم ؟ اننا نجد أن الواقع يثبت عكس ذلك التصور ، فأفراد البيئة اللغوية الواحدة لا يتفقون على المفهوم الدقيق لأية كلمة ذات دلالة مجردة كاتفاقهم على دلالات

الامور الحسية أو المادية . ومن هنا فإن أفراد البيئة اللغوية الواحدة قد تكون لهم تصورات مختلفة حول مفاهيم الحرية والديمقراطية والرجولة ، ولكننا لا نجد مثل هذا الاختلاف لديهم فيما يختص بمدلولات الكلمات التي تشير الى أمور مادية .

وثمة مشكلة أخرى لم يتطرق اليها دوسوسير ، ولذلك فانه ليس من الواضح كيف يمكن معالجتها على ضوء التقسيم الرباعي للرمز اللغوي . وهذه المشكلة يمكن تحديدها بالكلمات المترادفة . فلو أخذنا على سبيل المثال كلمة (عين) ، فما هو الواقع المادي الذي تعكسه هذه الكلمة ، وهل يصح أن نزعم بأن لهذه الصورة الصوتية الواحدة عدة مفاهيم ، أحدها يمثل العين الحقيقة التي بها نرى ، والأخرى يمثل النبع والثالث يمثل الجاسوس وهكذا ؟ وكيف يحدث مثل هذا الربط ما بين المفاهيم والصورة الصوتية في الذهن ؟ وما هو الحكم المناسب الذي نستطيع أن نصدره على الشخص الذي لا يعرف لهذه الصورة الصوتية الا مفهوماً واحداً ؟ ان الوضع هنا يختلف عن وضع الكلمات التي تطورت دلالاتها عبر التطور التاريخي للغة . ذلك لأن الوضع التاريخي للكلمات يعالج ضمن نسق تاريخي يختلف عن النسق الوصفي . وقد فصل دوسوسير نفسه في هذا الموضوع ، أي اختلاف الدراسة اللغوية التاريخية عن الدراسة اللغوية الوصفية . ولكننا لا ننوي الدخول في التفاصيل المتعلقة بهذا الجانب ، لأنه لا يدخل ضمن الاهداف المحددة لهذه المقالة .

نحو بديل لرأي دوسوسير

اتضح لنا من النقاش السابق أن مفهوم دوسوسير يصطدم ببعض العقبات حينما نحاول تطبيق هذا المفهوم على الكلمات التي تدل على معان مجردة وعلى الكلمات المترادفة وسبب ذلك أنه حاول تحديد المعنى من خلال الحديث عن ما هو المعنى . ولكن الملاحظ أن الكلمات في اللغة لا تدخل بسهولة في علاقات واضحة ، ثنائية أو غير ثنائية ، تحدد الرمز ومعناه . وبعبارة أخرى ، فان المعنى في أغلب الأحوال ليس عبارة عن (شكل) ثابت نستطيع الصاقه بمجموعة من الأصوات المرتبة في نسق معين . خذ مثالا على ذلك كلمة « ظل » . إنه من الصعب أن نحدد معنى هذه الكلمة على أنه العلاقة الاعتباطية المرتبطة بين الرمز ظِل وبين ما يرمز اليه هذا الرمز ، وهو المعنى المستفاد من هذا الرمز الذي هو : الفيء ، أو المساحة التي انحسرت عنها أشعة الشمس المباشرة ، كما يتضح ذلك من قولنا « الجلوس أو السير في الظل يقي من ضربة الشمس » لأننا لو ربطنا الرمز بهذا المعنى فاننا سنقف عاجزين عن التصرف حيال استعمال نفس الرمز ضمن سياق لغوي آخر ، مثل : « انه رجل ثقيل الظل » .

وحتى كلمة « رجل » والتي نعرف مدلولها معرفة واضحة تستطيع أن تدخل في سياق مختلف ، وذلك من قبيل : « انها رجل البيت » .

لتدل على المرأة القوية المتسلطة في البيت ، وسنعود الى هذا الموضوع فيما بعد .

ان الواقع اللغوي يكشف لنا أن اللغة أداة طيعة يستخدمها أبناؤها في الاتصال اللغوي بمختلف أشكاله ، ومستعمل اللغة يلجأ الى شتى الوسائل لكي يعبر عن أفكاره ويوضحها للآخرين ، فهو يستطيع أن يقول :

ان رائحة السماد كريهة (رائحة كريهة ، طعام كريه ، شراب كريه ...)
= صفة ماديــة

كما يستطيع أن يقول :

انها مذيعة كريهة (رجل كريه ، امرأة كريهة ، ضيف كريه ، كاتب كريه ...)
= صفة معنويــة

وهو في ذلك غير مقيد بقيود ثقيلة تفرضها عليه العلاقات الدلالية المفرغة في قوالب ثابتة . ومغزى هذا الكلام أننا سنتمكن من تحديد المعنى بشكل أدق لو تناولنا المعنى من خلال ما تؤديه الكلمة من وظيفة أو ظائف في الاستعمال اللغوي .

تحديد معنى الكلمة وظيفياً

من الاتجاهات المعروفة في الدراسة اللغوية الاتجاه الوظيفي . وهناك عدة صيغ وتصورات ضمن هذا الاتجاه منها تلك التي تطرحها كتابات اللغوى الانجليزي هاليدي M.A.K. Halliday . واللغة عند هاليدي وسيلة اتصال system of communication وهي مرتبطة بالمجتمع وتعبر عن السلوك الاجتماعي للفرد ، ولذلك فان دراسة الجانب الاجتماعي للانسان تقتضي دراسة اللغة كما يرى هاليدي (Halliday, 1973 : 49) . ولان اللغة مرتبطة بالجانب الاجتماعي فهي تمثل مجموعة من الاختيارات network of options هي عبارة عن الاساليب والتراكيب والكلمات التي يلجأ مستعمل الى استخدامها في المجتمع لبلوغ أهداف وغايات . وتبعا لطبيعة الاهداف وما يرافقها من ظروف وملابسات تأخذ الكلمات معانيها . أما التفاوت الفردي في الاستعمال اللغوي فمرجعه اختلاف التجربة وتفاوت أنماط المعرفة التراكمية المكتسبة[٧] .

وقبل أن أستطرد في موضوع كيفية تحديد المعنى وظيفيا ، أود أن أتوقف لحظة عند مدلول لفظة « كلمة » . إن لفظة « كلمة » تستعمل في علم اللغة لتدل على أصغر العناصر ذات المعنى في الجملة (وهذه العناصر بدورها تتركب من وحدات صرفية) . وبهذا فالافعال والاسماء والحروف تعد كلها كلمات لأنها تشكل العناصر التي تتركب منها الجمل في اللغة العربية . والحروف في اللغة العربية ــ كما هو الشأن في اللغات الأخرى ــ تشكل نظاما مغلقا closed system ، أي أنه بامكاننا التعرف على عدد الحروف ووظائفها ضمن دراستنا للنظام الصرفي للغة . فعدد حروف اللغة محصور ومحدد ، كما أن وظائفها تكاد تكون ثابتة وليس هناك مجال للاختيار الفردي ولذلك فسنستبعدها من حديثنا هذا ، وسنركز حول الأسماء والافعال التي تشكل نظاما مفتوحا open

system والنظام المفتوح لا يقصد به عدم قابلية العناصر المندرجة تحته للحصر بقدر ما يقصد به انفتاح تلك العناصر على بعضها ودخولها في علاقات واستعمالات لا تحصى .[٨] .

لكي نحدد المعنى الاشاري referential meaning ، أو بعبارة أخرى المعنى الذي نستعمله اشارة الى الكلمة المفردة ، فان علينا أن ندرسها مع العناصر التي « تتساوق » معها ، أي العناصر المسموح لها بالدخول في سياق مقبول مع تلك الكلمة . وفكرة « التساوق » collocation من الافكار التي طرحها هاليدي في منتصف الستينات[٩] ، وهي تهدف الى نبذ الجانب الذهني أو التجريدي في تعريف المعنى والتعويل على السياق الذي تستعمل فيه الكلمة بغية التوصيل الى الاستعمال الدقيق للكلمة . وطبقا لهذا المستوى من التحليل ، فان معنى الكلمة سيتحدد من خلال الكلمة أو مجموعة الكلمات الأخرى المستعملة معها . مثلا ، لكي نحدد معنى كلمة (يجري) واستعمالاتها فاننا نستطيع أن نتمعن في العناصر التي من الممكن أن تقع في سياق سليم مع هذا الفعل ، والأمثلة التالية ستوضح هذه الفكرة .

المجموعة الأولى :

يجري (تجري) { المرأة، الولد، الزرافة، الغزال، الدجاجة، الأسد، ....., ... }

يتضح من خلال أمثلة المجموعة الاولى أن « يجري » معناه يتحرك بسرعة باستعمال الأرجل ، والاسماء التي لها رتبة الفاعل في هذه المجموعة تشترك في صفة مادية جامعة وهي أنها من « ذوات الروح » .

وتبعا لذلك لا يصح أن نقول :

* الكرسي يجري
* الشارع يجري
* الطربوش يجري

حيث أن الاسماء التي لا تنتمي الى فئة ذوات الروح لا تتساوق مع يجري .

(ملاحظة : هذه العلامة (*) تستعمل في علم اللغة للدلالة على أن الجملة غير مستقيمة سواء أنحويا أم دلالياً) .

المجموعة الثانيـــة :

تأمل استعمال « يجري » في الآية القرآنية التالية :

« والشمس تجري لمستقر لها »

كذلك « يجري » في أمثلة من قبيل :

ـــ صرح علماء الفضاء الأمريكيون أن سفينة الفضاء الأمريكية التي أرسلت مؤخرا الى القمر تجري حاليا في مدار ثابت حول القمر .

ـــ الكواكب تجري بانتظام دقيق .

« فيجري » مستعمل هنا بمعنى مختلف ألا وهو : السير أو الدوران في مدار فلكي .

المجموعة الثالثـــة :

تأمل الأمثلة التالية :

ـــ الزيت الكثيف يجري في الأنابيب الباردة ببطء .

ـــ حينما تهطل الأمطار بغزارة يجري الماء في الجداول الصغيرة بسرعة كبيرة .

ـــ حينما بكى الفتى الصغير جرت دموعه على خديه .

نلاحظ أن « يجري » استعمل بمعنى : يتدفق أو ينساب .

المجموعة الرابعـــة :

في هذه المجموعة نجد الكلمة السابقة وقد استعملت بمعنى آخر .

ـــ تجري الأيام بسرعة .

ـــ يجري العمر بالانسان .

ـــ تجري الساعة ببطء .

فمعنى « يجري » في هذه المجموعة هو : ينسلخ أو يمضي .

المجموعة الخامســـة :

تمعن في هذه الأمثلة ، وحاول أن تتبين منها معنى « يجري » .

ـــ تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

ـــ تجري السحب الكثيفة بسرعة .

يجري بمعنى : يهب .

هذه الأمثلة توضح أن معنى الفعل « يجري » يتحدد من خلال « التساوق » collocation أي من خلال دخول الفعل في علاقات دلالية مقبولة مع عناصر أخرى . لنأخذ مثلا توضيحياً آخر ينتمي الى فئة الاسماء : كلمة ثقيل .

١ ــ ثقيل (ثقيلة) = ضد خفيف ، صفة مادية حقيقية في الأشياء
- صخــرة
- طاولــة
- رصــاص
- بــاب

٢ ــ شاي ثقيل = مركز لأنه غلى على النار أكثر مما ينبغي . (ولكن لا نقول هجوم ثقيل ، بمعنى مركز)

(أو : * عصير ثقيل ، بمعنى مركز أيضا)

٣ ــ دمه ثقيل ، ضيف ثقيل = انسان كريه أو سمج .

٤ ــ سمعه ثقيل = به شيء من صمم . (ولكن ثقيل لا تتساوق مع قلب في التعبير . قلبه ثقيل أي نبضه خفيف بسبب انسداد جزئي)

٥ ــ يده ثقيلة = بطيء في العمل (مع احتمال المعنى المذكور في (١) . (ولكن لا نقول * رجله ثقيلة لنعني أنه بطيء في الركض)

٦ ــ رجل ثقيل = تعبير مزدوج المعنى ambiguous
أ ــ ثقيل كما في (١)
ب ــ ثقيل كما في (٣)

ولكن تأمل في هذا التعبير « له ثقل في المحافل الدولية « أو « أنه انسان ذو ثقل » أي ذو أهمية . وفي كثير من اللهجات العربية المعاصرة نسمح لكلمة « رجل » أن تتساوق مع « ثقيل » في التعبير : رجل ثقيل ، ونقصد به الرجل الرزين . ونقول في اللهجات الدرجة : « أكل ثقيل على المعدة » تعبيرا عن الأكل الدسم .

كمثال آخر ، تمعن في معاني الفعل « أطلق » :

ــ أطلق عليه الرصاص = صوب اليه الرصاص باستعمال البندقية أو المسدس .
ــ أطلق لحيتــه = تركها تنمــو .
ــ أطلق سراحــه = أخلى سبيله ، حرره .
ــ أطلق الصاروخ = أرسله الى الفضاء .
ــ أطلق له العنان = جعله يتصرف على هواه .
ــ أطلق يده في الامر = جعله يتصرف فيه بحرية .
ــ أطلق عليه اسما غريبا = سماه باسم غريب .
ــ أطلقت المدفعية احدى عشرة طلقة = انبعث منها احدى عشرة طلقة .
ــ أطلق ساقيه للريح = فرّ مسـرعاً .
ــ أطلق الدواء بطنه = مشاه و أسهله .
ــ أطلق صفارة الانذار = أعلن الانذار باستعمال الصفارة الخاصة بذلك .

ولكننا ، مثلا ، لا نسمح لكلمة « محاضرة » أن تتساوق مع « أطلق » في مثل قولنا : * أطلق محاضرة (بمعنى ألقى محاضرة) . وكذلك لا نقول : * أطلق الملح على الطعام بمعنى رش الملح على الطعام . وليس من الجائز أن نقول * أطلق دعاية جديدة بمعنى بدأ . وبهذا يتبين لنا أن المعاني المختلفة للفعل (أطلق) تتضح عن طريق التساوق .

وبدراسة معنى الكلمة من خلال عملية التساوق نستطيع أن نقف على المعنى الدقيق للكلمة . ومعرفة المعنى الدقيق للكلمة تعيننا على الفهم الجيد للجمل ، كما أنها تيسر لنا عملية الترجمة اذا ما كنا بصدد ترجمة النص الى لغة أخرى . الى جانب ذلك فان تحديد المعنى عن طريق التساوق سيمكننا من وضع أيدينا على المعاني الحية والمعاني غير الحية،أي التي تطورت أو اندثرت في أعقاب التطور الطبيعي للغة . فمثال الكلمة التي تطور معناها « خجل » في التعبير القديم « خجل البعير » بمعنى تحيّر واضطرب . فنحن في لغتنا العربية المعاصرة لا نستعمل الكلمة بهذا المعنى أي ، أننا لا نسمح لكلمة « خجل » أن تتساوق مع غير ذوات العقول في الاسلوب العادي ، لأننا نستعمل الكلمة حاليا بمعنى « الحياء » . ومن الكلمات التي اندثرت (وقص) بضم الواو وكسر القاف ، كما في « وقص الرجل » أي سقط من فوق دابته فاندقت عنقه (المزهر ٢/٢٣٤) .

ومن الواضح أن الترادف لا يظل مشكلة قائمة حينما نحلل الكلمة مع متساوقاتها في الجملة . اذ أن الاستعمال سيوضح المعنى المقصود عندئذ ، كما في الأمثلة التالية :

ـــ أرسل الملك عيونه ليجوبوا أرجاء المدينة (العيون = الجواسيس) .

ـــ لا يتمكن الناس من رؤية المايكروبات بعيونهم المجردة . (العيون = الباصرة أداة الرؤية)

ـــ « وفجرنا الأرض عيونا » (العيون = جداول ، ينابيع ماء)

وقد يترتب على الاستعمال الاختلاف الوظيفي لما يبدو أنه كلمة واحدة (من الناحية الصوتية على الأقل) . وحينما يؤدي هذا الاختلاف الى أن تصنف الكلمة ضمن فئتين نحويتين مختلفتين ، فئة الاسم تارة وفئة الفعل تارة أخرى ، كما هو الحال بالنسبة لكلمة تغلب أو كلمة حمل (بتسكين الآخر فيهما) ، فمعنى ذلك أننا بصدد كلمتين مختلفتين ، ويمكن الاستعانة بهذه الحقيقة في تحديد الترادف أو تعريفه . (Halliday, 1964 : 157)

كذلك تساعدنا فكرة التساوق على تخمين معاني المفردات الداخلة في سياق مع مفردات أخرى . مثلا ، الفعل (خلع على) لا يستعمل الا بمعنى منح أو أعطى (جائزة أو لباسا) . أى أن أية كلمة تتساوق مع (خلع على) ينبغي أن تكون حتما من الاشياء التي تعطى كجائزة أو كنوع من أنواع اللباس . ولذلك فنحن حينما نقرأ في الأغاني (٥/١٥٨) ... « فشغف بي وخلع على دواج سنور » ... فسنعرف على سبيل اليقين أن « دواج سنور » ضرب من الثياب حتى وان كنا لا نعرف شكل هذا اللباس والمادة التي منها صنع ، وهذه أمور تفصيلية على أية حال ، والمعجم كفيل بتوضيحها . وكمثال آخر ، اقرأ الحكاية التالية من الأغاني (٩/٣٦) :

« بكى بعض أهل كثير عليه حين نزل به الموت فقال له كثير : لا تبك ، فكأنك بي بعد أربعين ليلة تسمع خشفة نعلي من تلك الشعبة راجعاً اليكم » .
قد تكون « خشفة النعل » من الكلمات التي تلاشت من الواقع اللغوي منذ القرن الرابع الهجري ، وبذلك انقطعت معرفتنا بمعناها الدقيق . ولكننا لا نشك أنها في هذا السياق تعني الذي يصدر من النعل ، لأن ما يتساوق مع « سمع » ينبغي أن يكون مما يصدر منه صوت .

كيف نحدد تساوقات الكلمة

من المفيد أن نتوقف هنا لنسأل عن الكيفية التي نتعرف بموجبها على الكلمة أو مجموعة الكلمات التي تأتي موضحة لمعنى كلمة أخرى : كيف نستطيع تحديد العلاقات الدلالية بين الكلمات لنستدل على أن الاسم (س) يوضح معنى الفعل (ص) وليس العكس ؟ ان أساس التحديد يتوقف على الكلمة نفسها ، أي الكلمة التي تحتاج إلى شرح أو توضيح دلالي . مثل هذه الكلمة نعتبرها النواة node ، أما ما يرتبط بها من كلمة أو كلمات تحدد معناها فتدخل ضمن متساوقات النواة collocates . ولكل كلمة مجال للتساوق span of collocation ، وهو عبارة عما تحتاجه الكلمة من كلمة أخرى أو ربما عدة كلمات حتى يتضح معناها في الاستعمال .[١٠] ومن الواضح أن أي جزء من أجزاء الجملة يصلح لأن يكون نواة التساوق وذلك اعتمادا على حاجة الكلمة الى تحديد معناها . ويمكن توضيح هذه الجوانب من خلال النص التالي[١٥] : (حاطوم ، ١٩٨٣ : ٢٥٦)

« بالرغم من سياسة العنف والقهر التي سلكها الاستعمار في الجزائر لم تخمد نار النضال . كانت تهدأ في ظروف ثم تعود فتثور في ظروف أخرى دون أن ينقطع لهيبها . ولكن الطرق اختلفت في هذه الفترة (١٨٨٦ ــ ١٩٢٥) عن سابقتها . فبعد أن كان النضال مشوبا بالعفوية والحماسة والارتجال ، سلك الآن مسالك جديدة ، لأن الممارسة أوجدت عند الجزائريين ، ولا سيما المستنيرين منهم ، وعيا جديدا وسلوكا جديدا . فبعد أن استتب الوضع للمستعمر في البلاد جرت تحويلات هامة في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية »

في النص السابق عدة كلمات يمكن تعيينها لتحديد معناها على مستوى التساوق . وسنختار منها الآتي :

الكلمة (النواة)	متساوقاتها	المعنى
يسلك	سياسة الـ (س) حيث = صفة دلاليا	= يتبع ذلك النمط من السياسة
تخمد	النار } مفرد	= تنطفيء
تهدأ	النار } مفرد	= يقل لهيبها

نار النضال
نار الفتنة } مركب
نار الحرب

.....

تثور	النار	= يزداد لهيبها فجأة
(س) مشوب بـ	(س)	= ممتزج بـ
	حيث س = صفة دلاليا	
استتب	الوضع	= هـدأ
جرت	تحويلات	=حدثت

وللتأكد من أن متساوقات الكلمة متمشية مع النمط الشائع للاستعمال في اللغة ، نستطيع استشارة المعاجم وكتب اللغة . كما نستطيع أن نسأل متكلما ابن اللغة[١١] عما اذا كان ذوقه اللغوي يقبل مثل ذلك الاستعمال أو لا يقبله . والاستعانة بحكم مستعمل اللغة تساعدنا في ترجيح القبول أو الرفض وخاصة حينما يتعلق الامر بالاستعمالات المتطورة أو الطارئة . وأنا أستعمل هنا كلمة « ترجيح » لأن الحكم في أغلب الأحوال لا يكون قطعيا بل يكون تغليبيا ، أي الأمر عبارة عن مقياس متدرج يوجد في طرف منه عنصر القبول وفي طرف آخر عنصر الرفض . وبين هذين النقيضين توجد درجات هي بين بين . فنحن لو عرضنا على ابن اللغة هذه الجمل الأربع (الشطي : ١٩٨٢) :

١ ــ وكنت يومها لسانا منهمرا يقطر حماسا (ص ٢٦)
٢ ــ رأس أصابه الخرس (ص ٤٣)
٣ ــ اجتاحني لفح الاحباط (ص ٥٤)
٤ ــ تراها تجلس تحت البقرة ، طين وروث ورائحة لا قبل لك بها ، تتحرك أصابعها مداعبة الثدي فينهمر حليب مبارك (ص ٧٩)

فانه لا يتردد بشأن صحة الجملة رقم (٣) والجملة التي تحتها خط في رقم (٤) . وقد يشك في مدى صحة الجملة الثانية على أساس أن الخرس يصيب اللسان . ولكن سرعان ما ستتضح له العلاقة بين انعقاد اللسان وعدم قدرته على الحركة واخراج الكلام ، وتوقف العقل عن التفكير . ولذلك فانه سيصنف الجملة تجاه جهة القبول . أما الجملة الأولى ففيها تعبير (لسان منهمر) ، وسيسبب هذا التساوق شيئا من الاشكال وخاصة أنه يعرف أن المعنى الدقيق لينهمر هو ينكسب بقوة ، كما استعمل في الجملة رقم (٤) . وقد يجيز ابن اللغة تساوق اللسان مع الانهمار اذا كان الانهمار متضمنا معنى الاندفاع .

وليس معنى هذا أنه ليس هناك دائما حد فاصل بين تساوق مقبول وتساوق غير مقبول . فنحن حينما نقرأ عبارة مثل : « ابتسمت . يبدو أنني اغتصبت البسمة ، فلم ترتح البنات ،

(قطب ، ١٩٨٣ : ١٣٨) . فاننا لا نتردد في رفض تساوق كلمة « البسمة » مع الفعل اغتصب . فالاغتصاب (مصدر الفعل اغتصبت) هو أخذ الشيء كرها ، وليس فعل الشيء كرها .

يتضح مما سبق أن التساوق يكون مقبولا طبقا لمستويين اثنين من الاستعمال اللغوي : أولا حينما يكون متمشيا مع الاستعمال العادي الذي ارتضاه أفراد البيئة اللغوية . وضابط هذا الاستعمال العادي هو الدلالة المعجمية للكلمات ، أو استعمال المتمكنين من أبناء اللغة . وثانيا حينما يمكن تفسيره حسب الاستعمال المجازي للكلمة . والاستعمال المجازي ما هو الا تساوق كلمة مع عنصر لا تتساوق معه الكلمة في الاستعمال العادي (غير المجازي) . فلو قرأنا العبارات التالية (الشطي : ١٩٨٢) :

١ ــ وجعلت أتأمل الهرب من التفكير فأقع فيه (ص ٤٣)
٢ ــ وماتت عبارته (ص ٦٨)
٣ ــ تتطاير حولها ألفاظ تحمل أفكارا تلوث الفضاء كله (ص ٧٩)

فاننا سندرك أن الجمل الثلاث تحمل معاني كلها مجازية ، وذلك لتساوق (عبارته) ، (الهرب) ، (ألفاظ) ... مع أفعال لا تدخل معها في علاقة التساوق في الاستعمال العادي . فما يتساوق مع (مات) في الاستعمال العادي ينبغي أن يكون من ذوات الروح وما يتساوق مع (يتأمل) يكون عادة مماله حجم أو هيئة . وما يتساوق مع (يتطاير) يكون في الاستعمال الشائع مما يشغل حيزاً من الفراغ . وإذا كانت القدرة على الاستعمال المجازي للكلمات تعد من المهارات التي يتمتع بها المستعمل الخلّاق للغة ، فليس الاستعمال المجازي في حقيقة أمره الا خروجا عن النمط السائد في الاستعمال الدلالي في اللغة . ولكن هذا الخروج يعد خروجا منسقا Patterned irregularity عن الانماط اللغوية العادية ، أي أنه يدخل ضمن نظام دلالي يمكن تحديد أبعاده وشرحه .

الهوامش

(١) لا يكاد يخلو مرجع من المراجع اللغوية الحديثة عن الحديث عن دوسوسير . ومن أحسن المواجع التي تحدثت عن حياة سوسير وأفكاره هو Culler (1976).

(٢) كان دوسوسير مقلا في الكتابة وتوفي ولم يكتب بالفعل غير مقالتين مهمتين الى جانب أطروحته للدكتوراه عن حالة الاضافة في اللغة السنسكريتية . وقد رأى اثنان من زملائه ممن لم يحضرا محاضراته أن يحفظا أفكار دوسوسير التي ألقاها على طلابه في قاعة المحاضرات . فاتصلا بعدد من طلبته وجمعا جذاذات المحاضرات والملخصات التي بحوزتهم ، وصاغا الافكار من وحي تلك المحاضرات ، ثم نشرت تحت عنوان course de linguistique gènèrale وسأعتمد في هذه المقالة على الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، وسأشير اليه اختصارا بـ course

(٣) أنظر أنيس (١٩٦٣ : ٦٤ ــ ٦٧) حيث يعرض آراء العلماء العرب الذين قالوا بوجود علاقة بين اللفظ والدلالة .

(٤) أنظر دي سوسير (course, P. 71) . والنص الانجليزي عبارته كما يلي :

" A law accepted by a community is a thing that is tolerated and not a rule to which allfreely consent "

(٥) عنوان المقالة The nature of the linguistic sign وهي منشورة في E. Benveniste (1971)

(٦) التعريف بنصه الانجليزي كما يلي :

Languge is a system of interdependent terms in which the value of each term results solely from the simultaneous presence of the others (Course, P. 114)

(٧) أنظر Halliday (1978) وبخاصة المقالة رقم (١) ورقم (١٠)

(٨) مصطلح النظام المغلق والنظام المفتوح مأخوذان من Halliday (1964 : 33)

(٩) أنظر : هاليدي (1964) وبخاصة ص ٣٢ فما بعد . هذا وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى أنه من الممكن تتبع جذور فكرة التساوق الى الثلاثينات ، حيث نجدها ضمن كتابات اللغوي الانجليزي فيرث J.R.Firth (الذي يعتبره البعض مؤسسا للمدرسة الانجليزية في علم اللغة) . أنظر هاليدى (1966) لتفاصيل بشأن السرد التاريخي للفكرة ، وأيضا ــ وخاصة في ص ١٦١ ــ لبيان الفرق بين فكرة التساوق وفكرة سياق الحال في تحليل المعنى .

(١٠) لا بد للمستزيد أن يرجع الى مقالة Sinclair (1966 : 415 ff)

(١١) يستعمل مصطلح « ابن اللغة » native speaker في علم اللغة للدلالة على المتكلم الذي يتكلم لغته الأم اكتساباً التي يكتسبها مستعمل اللغة منذ الطفولة الباكرة ، أى أنه يتعلمها شفاها من أفراد المجتمع وليس في قاعات الدرس .

المراجع العربية

ــ الأصبهاني ، أبو الفرج . الأغاني ــ مجلد ٥ و ٩ .

ــ أنور ، محمد سامي . « نظرية متكاملة في القدرة اللغوية » . **مجلة كلية الآداب** ، العدد ١٤ ، جامعة الكويت ١٩٧٩ ، ص ص ٢٢١ ــ ٢٣٨ .

ــ أنيس ، ابراهيم . **دلالة الألفاظ ط ٢** . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ .

ــ أولمان ، ستيفن . **دور الكلمة في اللغة** . ترجمة كمال محمد بشر ، القاهرة :١٩٦٢ .

ــ حاطوم ، نور الدين . « تاريخ الجزائر الحديث ــ دراسة سوسيولوجية » . **المجلة العربية للعلوم الانسانية** ، العدد ٩ ، ١٩٨٣ ، ص ص ٢٥٣ ــ ٢٦٢ .

ــ حجازي ، محمود . **علم اللغة العربية** . الكويت : مكتبة وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ .

ــ السيوطي ، جلال الدين . **المزهر** مجلد ١ و ٢ .

ــ الشطي ، سليمان . **رجال من الرف العالي** (مجموعة قصصية) ، الكويت : مكتبة دار العروبة ، ١٩٨٢ .

ــ قطب ، محمد . « حديث ملفوف بالطباشير » **مجلة البيان** ، العدد ٢٠٩ ، أغسطس ١٩٨٣ ، ص ص ١٣٦ ــ ١٤٢ .

ــ عمر ، أحمد مختار . **علم الدلالة** . الكويت : مكتبة دار العروبة ، ١٩٨٢ .

المراجع الاجنبية

Benveniste,E (1971) **Problems in General Linguistics.** University of Miami Press.

Culler, J. (1976) **Saussure.** Fontana/Collins.

Halliday, M.A.K. (1964)" Linguistics in the Description of Language ", in : M.A.K. Halliday, A. McIntosh, P. Strevens, **The Linguistic Sciences and Language Teaching.** London : Longman, 1964.

---------- (1966) " Lexis as a Linguistic Level ", In : C.B. Bazell, J.C. Catford,

M.A.K. Halliday, R.H. Robin (eds.) **In Memory of J.R. Firth.** London : Longman, 1966

---------- (1978) **Language as Social Semiotic.** Edward Arnold.

Lyons, J. (1977) **Semantics.** vol. 1,C.U.P.

Palmer, F.R. (1976) **Semantics :** a new outline. C.U.P.

de Saussure, F. (1957) **Course in General Linguistics.** English Translation by : Wade Baskin. McGraw Hill Book Company.

Sinclair, J.M. (1966) " Beginning the Study of Lexis ", In : Bazell et al. (eds.) **In Memory of J.R. Firth.** London : Longman.